(( الإفتقار إلى الله ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

**الخطبة : الإفتقار إلى الله**

الأولى

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله، أحمده سبحانه وهو المحمود وهو للحمد أهل، وأشكره وهو المشكور وهو للشكر أهل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

عباد الله... أوصيكم ونفسي بتقوى الله ﭽ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ آل عمران: ١٠٢

إن مسنا الضر أو ضاقت بنا الحيل فلن يخيب لنا في ربــنـــا أمــل

الله في كل خطب حسبنا وكفى إليه نـــرفع شــكــوانـــا ونبتهـــل

من ذا نلوذ به في كشف كربتنا ومن عليه سوى الرحمن نتكل

فافزع إلى الله واقرع باب رحمته وكم أنال ذوي الآمال ما أملوا

الملك، والحاكم، والأمير، والوزير، والغنيّ، والقويّ، والفقير، والضعيف وأنا وأنت وهو وهي ومن في الأرض جميعاً كلّنا فقراء إلى الله الغني الحميد ﭽ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ فاطر: ١٥

فقيرا جئت بابك يا إلهي ولست إلى عبادك بالفقير

غنيا عنهم بيقين قلبي وأطمع منك في الفضل الكبير

إن لذة الحياة، وراحة النفس عند شعور العبد بضعفه وذلّه وفقره إلى الملك، ومتى غرس هذا المعنى العظيم في القلب ونقش في الفؤاد، فتلك لبّ العبادة وأسّ التقوى، وحقيقة الذّل وثمرة العبوديّة فجميع العبادات تدعو العبد إلى الافتقار والذّل، والانكسار للواحد القهار.

فالصلاة وضوء وخضوع، وقيام وخشوع، وبكاء ودموع، وتمجيد وركوع، ثم يخر العبد على وجهه واضعاً رأسه في الثرى ممرغاً جبينه في الأرض ممكناً لأنفه ووجهه من التراب ذلّا وافتقاراً للواحد الوهّاب.

الصوم يمنع المرء في نهاره من الشهوة، والطعام، والشراب، وتصف الأقدام في ليله بالقيام، وتسكب العبرات بين يدي الملك العلام.

الزكاة والحج والعمرة عبادات يعلن العبد من خلالها فقره إلى الله تعالى.

إنّنا جميعا ينبغي أن نعلم بفقرنا، وشدة حاجتنا، وكبير فاقتنا إلى ربنا وأن الله تعالى هو الغنيّ الحميد غنيٌّ عن صلاتنا، غنيٌّ عن صيامنا، غنيٌّ عن حجّنا وعمرتنا، غنيٌّ عن صدقاتنا وزكاتنا ﭽ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﭼ الزمر: ٧

وقال سبحانه ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﭼ آل عمران: ٩٧

واستمع رعاك الله إلى هذا الحديث القدسي العظيم الذي أخرجه الإمام مسلم من رواية أبي ذر قال : قال رسول الله : قال الله : " يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

فلا تثق بنفسك إنما الثقة في رحمته وفضله وعطائه فأنت عبدٌ ضعيف فقير أتى ببضاعة مزجاة لا قيمة لها وأراد من الملك الغني الحميد أن يعاوضه عليها فما لنا إلّا الفقر بين يديه فأعمالنا وأقوالنا كلّها لا تقدّم ولا تؤخّر إذا ما أظهرنا فقرنا وضعفنا وذُلُّنا بين يديه.

قال ابن القيم يرحمه الله: وفقر العالم إلى الله تعالى أمر ذاتي لا يعلل فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته. (طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص8 ).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله على جلالة قدره وسعة علمه وكثرة تألهه وعبادته يقول:

أنا الفَقيرُ إلى رَبِّ البَريّــــــــاتِ أنا المِسْكينُ في مَجْموعِ حــــالاتي

أنا الظّلومُ لنَفْسي وهِيَ ظالِمَتي والْخَيْرُ إنْ يَأتِنا مِنْ عِنْدِهِ يــــأتي

لا أسْتطيعُ لِنَفْسي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ولا عَنِ النّفْسِ لي دَفْعَ المَضَرّاتِ

وليْسَ لي دونَهُ مَوْلىً يُدَبّرُنــي ولا شَفيعٌ إذا حاطَتْ خَطيئــــاتي

ولسْتُ أَمْلِكُ شيئاً دونَهُ أبَـــداً ولا شَريكٌ أنا في بَعْـــضِ ذَرّاتِ

ولا ظَهيرٌ لَهُ كَيْ يَسْـتَعينَ بِــهِ كما يَكونُ لأرْبابِ الوَلايــــاتِ

والفَقْرُ لي وَصْفُ ذاتٍ لازمٌ أبَداً كما الغِنى أبَداً وَصْفٌ لَـــهُ ذاتي

وهذهِ الْحالُ حالُ الخَلْقِ أجْمَعِهِم وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَــــهُ آتي

فَمَنْ بَغى مَطْلَباً مِنْ غَيْرِ خالِقِهِ فَهُوَ الْجَهولُ الظّلومُ المُشْرِكُ الْعاتي

فقسماً بمن أحلّ القسم لا طاقة لأحد منا بنفسه فلو تركنا سبحانه وتخلى عنا لهلكنا ولم نقم بطاعة ولم ندع معصية فنحن وربّ الكعبة بحاجة إلى دوام اللجوء إلى الله وسؤاله سؤال الفقير المسكين المشرف على الغرق وها هي دعوات الأنبياء والصالحين تعلن عن عجزهم وفقرهم إلى الله تعالى.

فهذا نبي الله يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم يبتلى بامرأة العزيز ويكيد له النسوة فيلجأ إلى الله ويشكو فقره وعجزه إلى مولاه ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ يوسف: ٣٣

تضرع ودعاء وافتقار وبكاء.

وهذا نوح يشكو أمره بعد ألف سنة إلا خمسين عاما ﭽ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﭼ الصافات: ٧٥ – ٧٦

وهذا نبي الله موسى لما ورد ماء مدين وسقى للمرأتين ثم تولى إلى الظل الظليل فلبس ثوب الفقر وارتدى جلباب الفاقة وأعلن الذل والمسكنة في مناجاة صادقة

ﭽ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ القصص: ٢٤.

فقير إلى كرمك وجودك.. فقير إلى عطائك وإحسانك..

لجأ العبد الفقير إلى الغني الحميد فسمعت الدعوة وأجيب النداء وفي طرفة عين ولمحة بصر أغدق العطاء ﭽ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﭼ القصص: ٢٥

وها هو سيد الخلق يقف في شهر رمضان في واقعة بدر الكبرى مع عصبة من أصحابه وقد أحاط به المشركون إحاطة السوار بالمعصم، فيلجأ إلى الله ويناشده مفتقراً إليه حتى أشفق أبو بكر على رسول الله مما رأى من شدّة افتقاره وانكساره بين يدي الله تعالى ، وقال يا رسول الله: يكفيك بعض مناشدتك لربك فإنه منجز لك ما وعدك.

وابن عباس رضي الله عنهما يحكي صورة لمناجاة وافتقار رسول الله على صعيد عرفات فيقول: رأيت رسول الله يدعو بعرفة ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين ، يقول : (( اللهم إنك ترى مكاني ، وتسمع كلامي ، ولا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائسُ الفقيرُ المستغيث المستجيرُ الوجل المشفق المقرّ المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبتُهُ ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفُهُ ، وفاضت لك عيناه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا ، وكن بي بارا رؤوفاً رحيماً ياخير المسؤولين ، ويا خير المعطين )) . [ انظره وتخريجه في الذل والانكسار لابن رجب : 74 ] .

وهذا علي كان يقف في محرابه إذا رخى الليل سدوله ، وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ قائلاً : يادنيا ألي تعرّضتِ ، أم بي تشوقت ، هيهات هيهات غرّي غيري ، فعمرُك قصير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !

وكان علي بن الحسين رحمه الله تعالى يقول في سجوده : " عُبَيْدُكَ بِفِنَائِكَ، مِسْكِينُكَ بِفِنَائِكَ، فَقِيرُكَ بِفِنَائِكَ، سَائِلُكَ بِفِنَائِكَ ".

قَالَ طَاوُسٌ: فَحَفِظْتُهُنَّ فَمَا دَعَوْتُ بِهِنَّ فِي كَرْبٍ إِلا فُرِّجَ عَنِّي .

لقد علموا جميعا أن الخلق كلّهم فقراء إلى الله ﭽ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ فاطر: ١٥

لقد أيقن الصالحون من عباد الله أن الملجأ والمفزع بالتضرع إلى الله تعالى وإظهار الحاجة إليه، والاعتراف بالافتقار والذل بين يديه. والاستكانة له ، فالدعاء هو العبادة كلها.

ونحن معاشر الصائمين في شهر الصيام وفي البلد الحرام وفي شهر الافتقار والإنكسار ، نحن في الشهر الذي يعلم العبد كيف يخشع وينكسر ؟وكيف يتوب وينيب ويذل ويفتقر ؟

نحن في الشهر الذي يعلم العين كيف تبكي؟ والروح كيف تناجي؟

والله عز وجل يدعونا معاشر الصائمين في كتابه العظيم بآية عظيمة جاءت في سياق آيات الصيام؛ آية إذا قرأها المسلم شعر بأنسه وقربه من الله ﭽ **ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ** ﭼ البقرة: ١٨٦

فيا أصحاب الحاجات.. يا أيها المرضى.. يا أيها المذنب والمهموم.. يا أيها المكروب والمظلوم.. يا من ضاقت عليه الأرض بما رحبت..

ارفعوا أكف الضراعة والفقر إلى الله .. اغتنموا أوقات الإجابة وتذكروا أن للصائم دعوة لا ترد.. تذكروا أن الله يحب أن يسأل.. تذكروا أن الله يغضب على من لا يسأله..

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

لا تَسْأَلَنَّ بَنِي آَدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

تذكر يا ساكن الحرم أن الله ينادي في كل ليلة هل من داع فأجيبه؟ هل من سائل فأعطيه؟ تذكر أخي الصائم أن الله حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا مدّ يديه أن يردهما صفرا .

تذكر يا ساكن الحرم أن للصائم دعوة لا ترد.

فأين اصحاب الحاجات؟

أين السائلون؟ أين الخائفون؟ أين الراجون والراغبون ؟ أين المذنبون التائبون؟

يقول بعض السلف: كن مثل الصبي إذا اشتهى على أبويه شهوة فلم يمكناه قعد يبكي عليهما فكن مثله إذا سألت ربك ولم يعطك فابك بين يديه.

ها هم الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار يوم خرجوا من ديارهم فآواهم المبيت إلى غار فتدحرجت عليهم صخرة عظيمة فسدّت فم الغار فإذا الغار صندوق مغلق وانقطعت عنهم السبل واحتبست أنفاسهم وغدا الليل والنهار عندهم سواء وضاقت عليهم أنفسهم فلجأوا إلى الله لجأوا إلى الذي يسمع السر والنجوى لجأوا إلى الذي يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون فرفعت دعواتهم وأجيبت نداءاتهم وفرّج الله همهم وغمهم

قال عمر بن الخطاب : (إني لا أحمل هم الإجابة ولكني أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء، علمت أن الإجابة معه).

الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وعظيم امتنانه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى جنته ورضوانه، صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: معاشر الصائمين والقائمين! هذه جمعة الوداع، الوداع لحبيب القلوب، وما أقسى لحظات الوداع بين المحبين ، الوداع لشهر الخيرات والبركات.

الوداع لشهر إقالة العثرات والصدقات وسكب العبرات.

وداعًا يا رمضان! يا شهر التوبة والغفران !

وداعًا يا رمضان! يا شهر البذل والإحسان!

وداعًا يا رمضان! يا شهر الذكر والقرآن !

وداعًا أيها الحبيب! فقد علمتنا كيف تكون ليالي المحبين، علمتنا كيف يحلو السهر بالمناجاة والأنين، وداعًا يا خير أنيس، لكل جليس، وداعًا فقد كنت روضة للأخيار، ونزهة للأبرار، وداعًا أيها الحبيب! آه ما أصعب الفراق بعد التلاق، لقد وجدنا فيك حلاوة الإيمان ولذّة الطاعة، وجدنا فيك رقة القلب وعفة اللسان، لقد رددت إلينا أرواحنا، بعد أن ذقنا مرارة البعد والحرمان، لقد طهرتنا من الذنوب والعصيان، وها أنت ترحل عنّا يا رمضان، فكيف سيكون الحال بعدك يا رمضان ؟

لقد ذقنا حلاوة الصيام، ولذة القيام، وقفنا مع الصالحين، وركعنا مع الراكعين، وسجدنا مع الساجدين ،ومرت الأيام، وكأنها أحلام، فقريباً تطفأ أنوار المساجد، ويتفرق الراكع والساجد. سبحان الله! أحقًا انتهى رمضان، لقد كنا بالأمس نذرف دموع الفرح لاستقباله، واليوم تسيل دموع الحزن لرحيل هلاله.

رمضان أيها الحبيب ترفق، دموع المحبين تدفق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق.

فيا من فرط! هيَّا إنما الأعمال بالخواتيم، فتب توبة صادقة، فقد غفر الله لرجل قتل مائة نفس ولم يعمل خيرًا قط إلا أنه تاب وعزم على الرحيل فمات، فغفر الله له وأدخله الجنة، فهيا اختم شهرك بالحسنى قبل أن تصير أسيرًا للمنون.

يا راحلا قبْلَ الأجَلْ لِمَ الرَّحيلُ على عَجَلْ؟

دمْعُ اللّقاءِ كمَا تَرى يرْوِي الخُدود َ ولمْ يزَلْ

يا راحلاً : حينَ الوداع صدْري تَقَادَحَ فاشْتعَلْ

تِلْكَ الصّفوفُ ستشْتكي راح القيامُ فمَا العمَل ؟

أمَّا القلوبُ أصابَها ألمٌ على منْ قدْ غَفَلْ

يا راحِلاً قِفْ لحظةً ندْعوا الإلهَ فمنْ سألْ

يحيا الحياةَ كَزاهدٍ ما غرَّه طولُ الأملْ

شدَّ الجميعُ رحالَه عن ذي المساجدَ وانْشَغَلْ

كلٌ سيلقى ربَّهُ يومَ الحساب بما فَعلْ

منْ صامَ كانَ ثوابه ريَّانَ يدْخُلُ في عَجَلْ

أما اللذي تَرَكَ الصّيَامْ وَعَنِ القيَامِ كَذَا غَفَلْ

فالوعدُ عِنْد اللَّهِ في يومُ القيامةِ إذْ عدَلْ

رمضانُ رُحْت َ مُوَدّعاً فاللّه ندْعوا في وجَلْ

اِغْفِرْ جَميْعَ ذُنوبنَا يا ذا الجلالِ معَ الأهَلْ

واعتق كذاك رقابنا فالنّار لا لا تُحْتَمَلْ